جهود الشيخ عبد الكريم الخطيب في تقرير حقيقة الإيمان

أبو القاسم بكري محمود حسن (*)

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد:

المؤمن يعيش في هذه الدنيا مطمئن البال، مرتاح الضمير؛ لأنه ينعم بنعمة الإيمان التي امتنّ الله بها عليه، وامتنّ بها على من يشاء من عباده.

أما الذي لم يهتد إلى وحي الله سبحانه وتعالى: فهو يعيش حالة قلق عميق الأثر في نفسه؛ لأنه جاهل لمعنى وجوده في هذه الدار؛ فهو لا يدري لماذا خلق، ومن أجل ماذا يعيش. فسعادة الإنسان في الدارين مبنية على قوة إيمانه بالله تعالى وقربه منه؛ فمن أطاع الله، واستمسك بالعروة الوثقى، وأعرض عن وساوس الشيطان فقد فاز فوزا عظيما.

فبالإيمان ينال العبد الجنة، وبالإيمان ينجو الإنسان من عذاب الله في الدارين.

(*) هذا البحث من إعداد الباحث وهو مستل من رسالة الدكتوراه بعنوان: [جهود الشيخ عبد الكريم الخطيب (ت ١٤٠٦هـ) الكلامية]، وتحت إشراف أ.د. خالد عبد الحليم عبد الرحيم عبد الرحمن - كلية الآداب - جامعة سوهاج & أ.د. أحمد شوره ضاوي علي - كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا - جامعة الأزهر.

قال تعالى: **{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**[1].

فالإيمان هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا: وعد الله المؤمنين بالنصر، والتمكين، والولاية، والدفاع عنهم، والهداية، والاستخلاف، وعدم تسليط الكافرين عليهم، والرزق الطيب، والعزة، والحياة الطيبة.

وفي الآخرة: تحدث الله تعالى عن حالهم فيها؛ فقال: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً *خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً}**[1]

وقد أخبر الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم عن جزاء المؤمنين، وما أعده لهم في الآخرة من الطيبات مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

منهج البحث:

سلكت في البحث المنهج الاستقرائي التحليلي للمسائل الواردة في حقيقة الإيمان بالله تعالى مما يندرج ضمن هذا البحث، وذلك وفق الآتي:

١-استقراء كتب الشيخ، واستخراج المادة العلمية المتعلقة بمسائل الإيمان.

([1]) سورة العصر: الآية (٣/١)

[1] سورة الكهف، الآيتان [١٠٧-١٠٨] .

٢- إذا كانت المسألة تتعلق بالرد على قول فرقة ما خالفت قول السلف، فإني أصور هذا القول ناسبًا إياه إلى مظانه في كتب الفرق، ثم أتبع بذكر قول الشيخ في تفنيد هذا القول، وقد أعقّب على رده إن احتاج ذلك إلى تعقيب أو إضافة.

٣- تخريج الأحاديث والآثار، فإذا كان الخبر فى الصحيحين أو أحدهما، اكتفيت بعزوه إليهما، وإذا كان فى غيرهما، عزوته إلى مواضعه، مع بيان حكم الأئمة عليه.

٤- التعريف بالأعلام الوارد ذكرهم فى البحث، وأقتصر على الترجمة لغير المشهورين.

حدود الدراسة:

البحث في مسائل الإيمان والتي هي مسائل الأسماء والأحكام، فإن البحث فيها من أهم مسائل الدين.

الدراسات السابقة:

١- منهج الشيخ عبد الكريم الخطيب في تفسيره "التفسير القرآني للقرآن" دراسة مقارنة نقدية. محمد أحمد حميده.

٢- دراسة تحليلية نقدية لكتاب "القصص القرآني في مفهومه ومنطوقة" للشيخ عبد الكريم الخطيب. د/ عودة عبد الله.

٣- الشيخ عبد الكريم الخطيب وجهوده في الدفاع عن الإسلام. د/ إسماعيل عبد العليم علي.

المطلب الأول: تعريف الإيمان

الإيمان لغة: التصديق[١]، ولكن هل التصديق مطابق للفظ الإيمان؟ وهل كل تصديق إيمان؟ أي ألا يوجد فرق بين التصديق والإيمان؟

الحق أن ثمة فروق بين "آمن " و" صدق" فالأول مثلاً يتعدى بالحرف، إما بالباء وإما باللام، كما قال تعالى: **{فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}**[٢]، وكما قال: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ}**[٣]. أما "صدق" فإنه يصح تعديته بنفسه فيقال: صدقه.

وكذلك فإنه من حيث الاشتقاق اللغوي نجد أن الإيمان مشتق من الأمن[٤]، الذي هو ضد الخوف، فآمن: أي صار داخلاً في الأمن. فهو متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة، كما قال: أخوة يوسف: **{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}**[٥] أي: لا تقرّ بخبرنا ولا تثق به، ولا تطمئن إليه، ولو كنا صادقين، فالتصديق وحده لا يدل على ذلك.[٦]

---

(١) انظر: الأزهري: تهذيب اللغة (١٥/ ٥١٣، ٥١٤) ط. شركة ومطبعة البابي الحلبي، مصر، الثانية، ١٣٨٩هـ، ت: عبد السلام هارون، والفيروزآبادي: القاموس المحيط (٤/ ١٩٩) ط. المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت. وابن منظور: لسان العرب (٢١/٥٤) مادة أمن، ط. دار صادر ودار بيروت. وابن فارس: معجم مقاييس اللغة (١/ ١٣٣) والرازي: مختار الصحاح (ص:١١) ط. مكتبة لبنان.

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٦)

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٨٥)

(٤) انظر: الراغب: المفردات (صـ٩٠. ٩١)

(٥) سورة يوسف: الآية (١٧)

(٦) انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٢)

وأيضاً فإن الإيمان لا يقال إلا في الأمور الغيبية التي تعتمد على أمانة المخبر، أما المشاهد المحسوس فيقال فيه: صدوق. كما أن مقابل الإيمان: الكفر، ومقابل التصديق: الكذب.

فالخلاصة إذًا أن الإيمان تصديق وزيادة، وهو للإقرار أقرب منه إلى التصديق[١] وهذا هو ما لاحظه وأكد عليه الشيخ، فإنه لم يذهب إلى أن الإيمان ـ لغة ـ هو التصديق فقط، بل قرر في تعريفه اللغوي، أنه تصديق وإقرار فقد قال: فالإيمان ليس مجرد إقرار باللسان، فإن الإقرار باللسان إذا لم يصدّقه العمل، كان نفاقا.[٢]

الإيمان شرعًا:

لقد اتفق أهل السنة على أن الإيمان: قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان الجوارح.[٣]

---

[١] ولقد بسط شيخ الإسلام هذا المعنى في عدة مواضع. انظر: مجموع الفتاوى (كتاب الإيمان الكبير (٧/ ١٢٢) وما بعدها، و (ص: ٢٩٠) وما بعدها.

[٢] التفسير القرآني للقرآن (٥/٥٨٥).

[٣] انظر: الآجري: الشريعة (ص: ١١٩) ط. الأولى، باكستان، ت: حامد الفقي، واللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٩١١) . ط. دار طيبة، الثالثة، ت: أحمد سعد حمدان، وابن منده: الإيمان (١/ ٣٤١) ط. المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، ت: علي ناصر فقيهي، وابن أبي العز: شرح الطحاوية (ص: ٣٣٢) ط. المكتب الإسلامي، التاسعة، ت: الألباني. والسفاريني: لوامع الأنوار (١/٢٤٦) ط. المنار، الأولى، سنة ١٣٢٣هـ بمصر. وانظر: أيضاً: أبو بكر بن أبي شيبة: الإيمان (ص: ٥٠) ط. المكتب الإسلامي، الثانية،١٤٠٣هـ، ت: الألباني، وأبو عبيد: الإيمان (ص: ١٩) ط. المكتب الإسلامي، الثانية، ت: الألباني.

واتّبع الشيخ أهل السنة في ذلك فإنه ربط بين الإيمان والعمل برباط وثيق، فنراه يقول فى أكثر من موضع: ليس الإيمان مجرد نطق باللسان، وتصديق بالقلب، وإنما هو- مع هذا- عمل بالجوارح، وابتلاء فى الأموال والأنفس.. فمن صدّق قلبه ما نطق به لسانه، ومن صدق عمله ما صدّق به قلبه، فذلك هو المؤمن، الذي يقبله الله فى المؤمنين. [١]

ويقول فى موضع آخر: فالإيمان ليس مجرد إقرار باللسان، فإن الإقرار باللسان إذا لم يصدّقه العمل، كان نفاقا..

والرسول صلوات الله وسلامه عليه، يكشف عن حقيقة الإيمان فيقول: ليس الإيمان بالتّمنّى، ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل. [٢] وإن قومًا خدعتهم الأماني وغرهم بالله الغرور.. يقولون: إنا نؤمن بالله!! وكذبوا.. لو صدقوا القول لصدقوا العمل» . [٣]

ويقول فى موضع ثالث: وإذن فليس الإيمان مجرد كلمة يتلفظ بها الإنسان، ليدخل بها فى جماعة المؤمنين، وليتخذ منها زيّا يندسّ به بينهم، وينال ما ينالون، ويطعم بما يطعمون، مما أعد الله لهم من رضوان، وجنات لهم فيها نعيم مقيم.. هكذا من

---

[١] التفسير القرآني للقرآن (٨٩٨/٦).

[٢] هذا الخبر رواه ابن النجار فى تاريخ بغداد وذيوله (٣٤/١٧) والديلمى فى مسند الفردوس (٥٢٣٢) ولكنه لا يثبت مرفوعا الى النبي ﷺ ، والمشهور أنه من قول الحسن البصري.

[٣] التفسير القرآني للقرآن (٥٨٥/٥).

غير أن يكون منه عمل صالح! بل الإيمان فى حقيقته، قول وعمل، معتقد وسلوك.. فمن لم يحقق الإيمان على هذا الوجه فليس مؤمنا، وليس له أن ينال شيئا مما أعد الله للمؤمنين. [١]

فالشيخ -رحمه الله- يؤكد أنه لا يحصل الإيمان الشرعي إلا بالقول والاعتقاد والعمل، لا يكفي واحد من هذه الأمور، بل لابدّ من الإتيان بها جميعًا.

وهذا ما اتفق عليه السلف رضوان الله عليهم:

قال الإمام مالك: "الإيمان قول وعمل"[٢]، وورد هذا القول عن الإمام الشافعي[٣]، والإمام أحمد[٤] ، رحمهم الله.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: "وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم، وممن أدركناهم يقولون: إنّ الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر".[٥]

---

[١] التفسير القرآني للقرآن (٩٠٩/٣).

[٢] انظر: أبو عبيد: الإيمان (ص: ٣٥) ط. المكتب الإسلامي، الثانية، ١٤٠٣هـ، واللالكائي: شرح اعتقاد أهل السنة (٤/ ٩١٣) ، والآجري: الشريعة (ص:١١٨) وعبد الله بن أحمد: السنة (٣١٧) ط. دار رمادي والمؤتمن، الثانية، ت: محمد سعيد القحطاني.

[٣] انظر: البيهقي: مناقب الشافعي (١/ ٣٨٥) ط. مكتبة دار التراث، مصر الأولى ١٣٩١هـ، ت: السيد صقر.

[٤] انظر: عبد الله بن أحمد: السنة (٣٠٧/١)

[٥] الأم للشافعي (٢٢٤/٢-٢٢٥)، الإيمان لابن تيمية (١٦٦/١).

وقال الإمام ابن عبد البرّ -رحمه الله- "أجمع أهل الفقه والحديث على أنّ الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية. والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. والطاعات كلها عندهم تسمى إيمانا"[1].

فالإيمان عند السلف: قول اللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

فبإدخالهم العمل فى مسمى الإيمان؛ خالفوا أهل التفريط من المرجئة الذين أخرجوا العمل من الإيمان، وباعتقادهم حصول الزيادة والنقصان فيه دون إزالته بالكلية إذا لم يؤد النقص إلى القدح فى أصل الإيمان؛ خالفوا أهل الغلو من الخوارج الذين قاموا بتكفير مرتكب الكبيرة، وكل هذه الحقائق المتعلقة بمفهوم الإيمان الشرعي إنما استقاها السلف الصالح من معين الكتاب والسنة، ذلكم أنه قد استقر فى أفئدتهم وعقولهم التلقي منهما والرد إليهما فى كل أصل وفرع، وعليه فإن جميع المسائل التي تندرج فى قضايا الإيمان إنما يعلم حقيقة رأى السلف فيها من خلال تعريفهم للإيمان، حقيقة مستوحاه من الهدى النبوي الكريم.

ولمكانة هذا الأصل: (الإيمان) حيث تقوم عليه ركائز الدين، وتبنى عليه أحكام الدنيا والآخرة[2]، ظهر النزاع فيه مع أول افتراق حدث فى الأمة الإسلامية؛

---

[1] التمهيد (٩/٢٣٨).

[2] الفتاوى لابن تيمية (٧/٣٩٥).

فالخوارج إنما تفرع خروجهم وانشقاقهم عن الفهم السقيم لهذا الأصل، حيث اعتقدوا أن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص؛ لأن نقصانه يعنى زواله بالكلية، فإنهم لما أقروا بدخول العمل فى مسمى الإيمان، وظنوا أن العمل بمنزلة واحدة فسووا بين العمل الذى لا يصح إيمان المرء إلا به بسائر أنواع العمل من الفروض والواجبات، وشددوا فى هذا الأمر؛ حملهم هذا الغلو على اعتقاد تكفير مرتكب الكبيرة، واعتقاد تخليده فى النار.

وفى مقابل هذه الفرقة، وكرد فعل لها ظهر الإرجاء، كفكر أخذ يغزو معتقد المسلمين، مندداً بمعتقد الخوارج، مضللًا إياهم، تتبناه طائفة (المرجئة) تعلن بصراحة موقفها المغاير لما التزمه الخوارج من تكفير مرتكب الكبيرة، دون معارضة لها فى كون الإيمان حقيقة واحدة، لا يزيد ولا ينقص، وأن نقصانه يعنى زواله بالكلية، وإنما من جهة تعريفه، وما يقتضيه ذلك المفهوم الجديد للإيمان، الذى ظهر فى معتقد هؤلاء، حيث قصروا حقيقة الإيمان على خلاف بينهم فى الإقرار أو التصديق، فأخرجوا بذلك العمل من مسمى الإيمان وغايروا المعنى الصحيح له، والذي عليه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم.

فالإيمان عندهم لا يمكن أن يدخل فيه العمل؛ لأنه لو دخل لأدى ذلك إلى نقصانه بحجة عدم إمكان الإتيان بكافة أفراد العمل، وحتى لا يحكم بكفر مرتكب الكبيرة.

ولما كان نقصان الإيمان ممتنع، لأنه يعنى – عندهم – زوال الإيمان بالكلية، التزموا لذلك إخراج العمل عن حقيقة الإيمان، واعتقاد وجوب قصره على الإقرار أو التصديق دون العمل[1].

وقد أدت هذه المفاهيم الدخيلة إلى الخروج عن الحقيقة الشرعية فى المسائل المتعلقة بالكفر، ذلكم أن الذين اعتقدوا حصر الإيمان فى الاعتقاد قصروا ما يضاده من الكفر أيضًا على الاعتقاد دون العمل، وخالفوا بذلك صريح النص فى وقوع الكفر لبعض أنواع المخالفات التي قد ترتكب بالجوارح، تمامًا كوقوعه عند مناقضة أصل الإيمان بالتكذيب أو الشك.

[1] الفتاوى لابن تيمية (٣٩٥/٧)، ظاهرة الإرجاء (٣٧١/٢)، المواقف للإيجى (٣٨٤-٣٨٥).

المطلب الثاني: زيادة الإيمان ونقصانه

أهل السنة والجماعة يقولون: الإيمان قول وعمل؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[١].

والخلاف في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه فرع عن الخلاف في تحديد معنى الإيمان الشرعي؛ فمن قال من المبتدعة: إنّ الإيمان هو التصديق، ولم يدخل العمل، قال بعدم الزيادة والنقصان. ومن قال بقول أهل السنة والجماعة أنّ الإيمان قول واعتقاد وعمل، قال بأنه يزيد وينقص.

وقد أوضح الشيخ هذه المسألة، وبين أنّ الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

واستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً}**[٢] فالمؤمن الحق إذا تلى آيات الله أو تليت عليه، خشع لها، وأشرق قلبه بنورها، فازداد بذلك إيمانًا على إيمان، ثم انتهى به ذلك إلى أن يكون عبدًا ربّانيا، يسلم أمره كله لمن بيده الأمر كلّه. [٣]

---

[١] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٥/٩٦٠).

[٢] سورة الأنفال: الآية (٢)

[٣] التفسير القرآني للقرآن (٥/٥٦١).

وقال فى موضع آخر عند تفسير قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ}**[١] بشرى إلى المؤمنين، فى مقابل البشرى التي حملها القرآن إلى النبي الكريم فى قوله تعالى: **«إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً»**[٢] فإن لهم من هذا الفضل الإلهي ما يحفظ عليهم إيمانهم، ويزكّيه، وينقّيه، وينمّيه.. فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ويقينًا إلى يقينهم.[٣]

أما عند قوله تعالى: **{وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}**[٤]

قال: فالذين آمنوا، تزيدهم آيات الله إيمانًا مع إيمانهم، بما يطالعون فيها من وجوه جديدة تتجلّى فيها آيات الله، وتشعّ منها ألوان مضيئة كاشفة عن عظمة الخالق، وجلاله، وعلمه، وقدرته، وحكمته، ورحمته.[٥]

وذكر الشيخ أن الإيمان القلبي نفسه يزيد وينقص وذلك عند تفسير قوله تعالى: **{وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}**[٦] وإبراهيم- عليه السّلام- فى وثاقة إيمانه، وقوة يقينه- لا عليه

---

[١] سورة الفتح: الآية (٤)

[٢] سورة الفتح: الآية (١)

[٣] التفسير القرآني للقرآن (١٣/٣٩٩-٤٠٠).

[٤] سورة التوبة: الآية (١٢٤)

[٥] التفسير القرآني للقرآن (٦/٩٢٢).

[٦] سورة البقرة: الآية (٢٦٠)

إذا هو وجد طريقًا إلى مزيد من الإيمان، حتى يمتلئ به قلبه، فلا يبقى فيه مكان لم يغمره نور اليقين، ولم تعمره الطمأنينة- لا عليه أن يطلب المزيد حتى يرتوي ريّا لا ظمأ بعده! [١]

والأدلة على ذلك من السنة كثيرة، منها: ما رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان من صحيحيهما شواهد صريحة في ذلك ومن أهمها أحاديث أقل الإيمان المنجى في الآخرة[٢] وحديث "الإيمان بضعة وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" [٣]

ومن الآثار عن الصحابة فى هذه المسألة: ما روى عن عمير بن الخطمى – رضي الله عنه- قال: "الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه".[٤] وعن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- أنه كان يأخذ بيد الرجل

---

[١] التفسير القرآني للقرآن (٣٣١/٢).

[٢] يعني حديث "أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.." انظر: البخاري: الصحيح: ك: الإيمان، باب (١٥) : تفاضل أهل الإيمان، ح: ٢٢ (١/ ٩١ مع الفتح) وأيضاً: ح: ٤٤ (١٢٧/١)

[٣] صحيح البخاري، ك: الإيمان، باب: أمور الإيمان، ح: ٩ (١/ ٦٧) ، وصحيح مسلم: ك: الإيمان، ح: ٣٥ و ٥٨ و٥٩ (١/ ٦٣)

[٤] الشريعة للآجرى (٥٨٣/١).

والرجلين من أصحابه فيقول: "قم بنا نزداد إيمانًا".[١]

وعن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه- أنه كان يقول فى دعائه: "اللهم زدني إيمانًا ويقينًا"

وعن أبى الدرداء –رضي الله عنه- أنه قال: "إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص، وأن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنّى يأتيه".[٢]

وأما التابعون فمن بعدهم من أهل السنة، فقد سبق أن حكينا إجماع أهل السنة على أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص[٣]

وأما سائر المخالفين لأهل السنة فى ذلك: المرجئة بفرقها من جانب، والمعتزلة والخوارج من جانب آخر، فمع بُعد ما بينهما، قد اجتمعوا على أن الإيمان شيء واحد، لا يزيد ولا ينقص، فإذا ذهب بعضه، ذهب كله. وهذا الذى اجتمعوا عليه، قد اعتبره ابن تيمية الأصل الذى تفرعت عنه البدع فى مسائل الإيمان[٤] .

فأما من قال: إن الإيمان هو التصديق – كما هو مذهب المرجئة، ومختار

---

[١] الإيمان لابن أبي شيبة (٤١/١).

[٢] الإبانة الكبرى لابن بطة (٨٤٩/٢).

[٣] الإيمان لأبي عبيد (٢٦/٢٤)، الإيمان لابن أبي شيبة (٤١/١).

[٤] الإيمان لابن تيمية (٢١٠)، وانظر أيضا: الإيمان الأوسط، ضمن الفتاوى (٥١٠/٧)، ظاهرة الإرجاء (٤٠١/٢).

الأشاعرة، فعنده أن التصديق متى انخرم منه أدنى شيء بطل الإيمان[١]. وربما قالوا: التصديق عرض، والعرض لا تجوز عليه الزيادة والنقصان، وإنما الذى يزيد وينقص هي الأجسام[٢].

وهذا، وإن كان هو المشهور عند الأشاعرة [٣] واختاره من أئمتهم الباقلانى والجوينى، فقد رجح كثير من محققيهم أن نفس التصديق يقبل التفاوت؛ فيزيد وينقص[٤] وهذا هو منصوص الأشعري فى "الإبانة"، ونقل إجماع السلف عليه [٥]

وأما المعتزلة فقد حُكى عنهم أنهم ينفون زيادة الإيمان ونقصانه، وهو ظاهر على قولهم بزوال الإيمان عمن قارف كبيرة واحدة، على ما يأتي، إن شاء الله.

لكن يبقى أنهم موافقون للسلف على إدخال العمل فى مسمى الإيمان، وقد قال البغدادي: "كل من قال: إن الطاعات كلها من الإيمان، أثبت فيه الزيادة والنقصان[٦]. وقد صرح غير واحد بنسبة القول بالزيادة والنقصان إلى

---

[١] الإنصاف للباقلانى (٥٧)، المواقف للإيجى (٣٨٨)، نظم الفرائد (٥٢).

[٢] انظر: الحجة للأصبهانى (٤٠٥/١)، مسائل الإيمان لأبى يعلى (٣٩٩)، وقارن: الإرشاد للجوينى (٣٣٥،٣٣٦).

[٣] انظر: طبقات الشافعية، لابن السبكى (١٣١/١)، وانظر أيضا: رسالة السجزى (١٧٩).

[٤] انظر: طبقات الشافعية (١٣١/١-١٣٣)، المواقف (٣٨٨)، شرح الجوهرة (٥٦).

[٥] الإبانة (٢٧)، رسالة أهل الثغر (٩٣).

[٦] أصول الدين (٢٥٢).

المعتزلة.قال الرازي: ".. وعند المعتزلة، لما كان اسما لأداء العبادات، كان قابلًا لهما"[١] . وهذا – فى الواقع هو الذى يقرره القاضي عبد الجبار نفسه، فيقول: "الكلام فى أن الإيمان هل يزيد وينقص"؟ قال: "وجملة ذلك أن المرجع بالإيمان إذا كان إلى أداء الفرائض منها والنوافل، واجتناب المقبحات، فإن ذلك مما يدخله الزيادة والنقصان، بلا إشكال .."، ثم ذكر بعض النصوص الدالة على الزيادة والنقصان، والنصوص الدالة على دخول الأعمال فيه[٢].

وكذلك يقرر الزمخشرى فى غير موطن من "كشّافه": "زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي، والعمل به" [٣]، ويشير أيضا إلى تفاوت اليقين القلبي.

وإذا كان السلف يقررون زيادة اليقين القلبي ونقصانه، ويقررون، كذلك، زيادة جملة الإيمان، الذى هو أحد أركان هذه الهيئة. فإن الفارق الحقيقي بين المذهبين يظهر فى معرفة حقيقة الإيمان المتبقي عند الشخص، من بعد ما نقصه بارتكاب ما ارتكب من الكبائر، هل بقى معه شيء، ولو مثقال ذرة، ينفعه فى النجاة من النار يومًا ما، وإن عُذّب، كما هو قول أهل السنة؟! أم لم يبقى معه شيء ينفعه فى النجاة من الخلود فى النار، كما تقول المعتزلة، وقبلهم الخوارج.

---

[١] المحصل (٢٣٩)، وقد صرح بذلك أيضا: ابن حزم فى الفصل (١٠٦/٣).

[٢] شرح الأصول (٨٠٢)، وذكر أيضا فى "المختصر فى أصول الدين" وجها آخر فى الزيادة والنقصان، وهو أنه قد يجب على مكلف ما لا يجب على الآخر. انظر: رسائل العدل والتوحيد (٢٤٧/١).

[٣] الكشاف (٣٢٤/٢)، وانظر أيضا: (٣٠٩،٤٤٢/١)، (١٩٦/٢) من نفس المصدر.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث أذكر أهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي:

-الإيمان عند أهل السنة: قول اللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

فبإدخالهم العمل في مسمى الإيمان؛ خالفوا أهل التفريط من المرجئة الذين أخرجوا العمل من الإيمان، وباعتقادهم حصول الزيادة والنقصان فيه دون إزالته بالكلية إذا لم يؤد النقص إلى القدح في أصل الإيمان؛ خالفوا أهل الغلو من الخوارج الذين قاموا بتكفير مرتكب الكبيرة.

-الخلاف في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه فرع عن الخلاف في تحديد معنى الإيمان الشرعي؛ فمن قال من المبتدعة: إنّ الإيمان هو التصديق، ولم يدخل العمل، قال بعدم الزيادة والنقصان. ومن قال بقول أهل السنة والجماعة أنّ الإيمان قول واعتقاد وعمل، قال بأنه يزيد وينقص.

-الإسلام والإيمان كما هو مقرر في قواعد أهل السنة والجماعة:

إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا؛ أي إذا اجتمعا باللفظ افترقا بالمعنى؛ فيشمل الإسلام الأعمال الظاهرة. والإيمان الأعمال الباطنة. وإذا افترقا باللفظ اجتمعا بالمعنى؛ فيشمل كلّ واحد منهما الأعمال الظاهرة والباطنة.

المصادر والمراجع

١- الإبانة الكبرى:

عبد الله بن محمد العكبرى المعروف بابن بطة، تحقيق: رضا بن نعمان بن معطي وآخرين، دار الراية، الرياض، ط: ٢، ١٤١٥هـ.

٢ ـ أصول الدين. عبد القاهر البغدادي ت "٤٢٩" هـ ـ دار الكتب العلمية-.

٣ ـ أعلام الموقعين: لابن الجوزى، دار الجيل للنشر والتوزيع. بيروت-لبنان.

٤ ـ الأم للشافعي، ط: الأولى ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م، دار الوفاء للطباعة والنشر

٥ ـ الإيمان. لشيخ الإسلام ابن تيمية ت "٧٢٨" هـ ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٣٩٢هـ، ت: الألباني.

٦ ـ الإيمان. محمد بن إسحاق ابن منده، ط. المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ت: علي ناصر الفقيهي.

٧- الإيمان: أبو بكر بن أبي شيبة: ط. المكتب الإسلامي، الثانية،١٤٠٣هـ، ت: الألباني.

٨- الإيمان: لأبو عبيد: ط. المكتب الإسلامي، الثانية، ت: الألباني.

٩- التفسير القرآني للقرآن: للشيخ عبد الكريم يونس الخطيب ت(١٩٨٥) ١٣٩٠ هـ، دار الفكر العربي.

١٠ ـ تهذيب اللغة. أبو منصور الأزهري محمد بن أحمد ت "٣٧٠" هـ ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ، ت: عبد السلام هارون.

١١- رسالة أهل الثغر. للأشعري، ت: د. محمد السيد الجليند، سلسلة التراث السلفي، مطبعة التقدم، ١٩٨٧م.

١٢- السنة.لعبد الله بن أحمد بن حنبل: ط. دار رمادي والمؤتمن، الثانية.

١٣ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ت "٤١٨" هـ ـ دار طيبة الرياض ـ، الثالثة، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م، ت: أحمد بن سعد حمدان.

١٤ ـ شرح الطحاوية. لابن أبي العز الحنفي ط. المكتب الإسلامي، التاسعة.

١٥- الشريعة.الآجري، ط. حديث أكدمي، باكستان، الأولى ١٤٠٣هـ.

١٦ ـ صحيح البخاري. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري "٢٥٦" هـ ـ دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي ـ وشركاه، ط. المطبعة السلفية ومكتبتها (مصورة الريان للتراث) ط. الثانية، ١٤٠٩هـ =١٩٨٨م.

١٧- صحيح مسلم: ابن الحجاج، ط. دار إحياء الكتب العربية، مصر، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي.

١٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى. عبد الوهاب بن عبد الكافي السبكي ت "٧٧١" هـ ط: ١ تحقيق محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو ـ ط ٢، دار هدر، القاهرة ١٤١٣هـ.

١٩- ظاهرة الإرجاء: سفر الحوالى – الطبعة الأولى – مكتب الطيب.

٢٠ ـ القاموس المحيط. للفيروزآبادي، ط. المؤسسة العربية للطباعة والنشر..

٢١ ـ الكشاف: الزمخشري، ط٣، دار الريان، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

٢٢ ـ لسان العرب: لابن منظور ت "٧١١" هـ ـ دار صادر ـ بيروت.

٢٣- مجموع الفتاوى: ابن تيمية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ =١٩٩١م.٢٤ ـ مختار الصحاح: الرازي ت "٦٦٦" هـ ، ط. مكتبة لبنان، بيروت.

٢٤- مسائل الإيمان: لأبي يعلى، ت: سعود بن عبد العزيز الخلف، ط١، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٠هـ.

٢٥- المسند: أحمد بن حنبل، ط. دار المعارف بمصر، ١٣٧٦هـ =١٩٥٧م، ت: أحمد شاكر، ط. المكتب الإسلامي.

٢٦- المسودة: ابن تيمية، ت: عبد الحميد، ط. مطبعة المدني بمصر.

٢٧- مناقب الشافعي:

البيهقي، ط. مكتبة دار التراث، مصر الأولى ١٣٩١هـ، ت: السيد صقر.